خبرني عن لبنان جدو

فريدا عنبر
رسوم جورج تقلا
ترجمة رزان رخا

اهدي هذا الكتاب ال والدي الحبيب ميشال عنبر الذي زرع في كثير من الحب لوطني الأم لبنان

Copyright © 2015 Frida Anbar

ISBN 978-2-9813544-8-8

يجلس ميكا في قاعة انتظار مدرسته بعد انتهاء الدوام اليومي.

عيونه تنظر الى البعيد ووجنتاه ملتصقتان بزجاج النافذة البارد، والثلج يتساقط بهدوء ورتابة ليملأ فراغ بعد ظهر يوم عادي في مونتريال.

إنه يوم الخميس، اليوم المحجوز للجد على مدار العام. اذ يأتي الجد لإصطحاب حفيده من المدرسة لتناول الطعام، وقضاء طيلة فترة ما بعد الظهر معاً.

بعد تناول الغداء وإتمام الفروض المدرسية، يبدأ موعد ميكا مع السحر والدهشة.

يحضر الجد ميشال ألبومات الصور القديمة ويفتحها أمام ميكا. ومع فتح كل ألبوم، كان الجد يفتح أمام حفيده الصغير جزءاً من حياته الماضية ما قبل المجيء الى كندا.

في بلد آخر، بلد لا يعرفه ميكا، بلد البحر والأفق والجبال الخضراء المكللة رؤوسها بالأبيض، و بلد الماضي حيث يقطن القلب.

صور كثيرة مرتبطة بأحداث قديمة قبل وقوع الحرب التي أجبرت العائلة على ترك الوطن الأم لبنان، الذي يدعوه الجد ميشال بحنان "ليبنان".

كان لقاء ميكا الأسبوعي بجده بمثابة موعد يتجدد مع كل ما هو مثير وفريد وغريب.

كل خميس تتجدد مغامرة ميكا الفريدة وهو يجلس على ركبتي جده ليحمله هذا الأخير في رحلة جديدة، فلكل صورة حكاية ولكل حكاية بداية يبدؤها الجد وهو برغم وجهه المتجعد الا ان نوراً كان يومض من عينيه اللتين كانتا تلمعان كالنجمات وهو يستعيد ذكريات حياته الماضية.

كان الجد عندما يبدأ بالحديث عن لبنان، يرتجف صوته قليلاً في أواخر الجمل.

- انظر يا ميكا، انظر جيداً فرغم تغير لون الصور واصفرارها يمكنك أن ترى هذا البيت؟ هل ترى "السطيحة" التي تظللها العريشة؟

إنه بيت العائلة في عاليه. كنا نقضي الشتاء في بيروت أما الصيف فنقضيه في الجبل دائماً.

أنظر يا ميكا الى القناطر التي تحيط بنوافذ البيت. هذه ميزة البيوت التقليدية التي تزيّن منطقة الشوف.

وبلدتنا عاليه يطلق عليها لقب "عروس المصايف اللبنانية" وهي قريبة من بيروت وتمتاز بمناخها العذب.

حاول أن تتخيل يا ميكا عذوبة هواء فصل الربيع، وخصوبة الأرض والاطلالة على مدينة بيروت والناس طيبي المعشر الذين يعيشون في الضيعة.

في أيام الأحاد، كانت تنجمع العائلة بأكملها لقضاء اليوم عنا حيث تتداخل الأجيال، جيلين معاً وأحياناً 3 أجيال تحت سقف واحد ليشكلوا عائلة واحدة متحابة.

كانت جدتك، رحمها الله تطبخ كميات هائلة من الطعام وكانت فرحتها بالوافدين تمدّها بالقوة اللازمة والطاقة المطلوبة لإتمام عملها.

فالعائلة بالنسبة للفرد اللبناني مقدّسة، وكرم الضيافة هي من القيم الأساسية بالنسبة لكل لبناني.

مائدة جدتك كانت عنواناً للكرم والبركة وحسن الضيافة، وكانت تتنوع بتنوع المازة اللبنانية التي تقدم قبل الطبق الأساسي الذي يتكون عادة من المغربية أو الشيش برك أو السمكة الحرّة.

أصناف تتناقلها الأجيال من الجدة الى الأم الى الابنة وجميعها تلخص تراث بلدنا.

أما أنا يا جدو فكنت مسؤولاً عن تحضير الكبّة النيّة. كنت أضع اللحمة في الجرن المخصص لها وابدأ دقها بالمدقة الكبيرة الى أن تصبح جاهزة للطعام. سقا الله يا ميكا. سقا الله يا جدو.

عندما كان والدك في مثل عمرك، كان يقضي الصيف كله في حديقة البيت المليئة بالأشجار المثمرة محاط بإخوانه واخواته وأولاد وبنات أعمامه وأولاد وبنات جيرانه، وكانوا يركضون في أحضان الطبيعة ويخترعون الألعاب المسلّية.

كان لبنان في تلك الحقبة الزمنية في عزّ ازدهاره وكان السوّاح الأجانب الذين يزورون لبنان، يظنون انهم في جنّة على الأرض.

يتأمل ميكا الصور التي أمامه، ويجد صعوبة في تمييز الوجوه التي يراها. فها هو شعر والده يتطاير في الهواء بتمرد وحرية، اما والده اليوم، فهو مختلف تماماً، يرتدي النظارات الطبيّة، وشعره مصفّف بعناية ويبدو أكثر جديّة. انها حتماً طبيعة الحياة في كندا.

تتوالى أيام الخميس وتتلاحق معها اكتشافات ميكا.

- ماذا يفعلون في هذه الصورة يا جدو؟
- يجيبه الجد: انهم يتدربون على الدبكة يا جدو. فالدبكة هي الرقصة الفلكلورية في لبنان وهي تعبر عن الفرح والحرية والوطنية. يؤلف الراقصون حلقة ويضربون الأرض بأرجلهم بقوة. وكيف لا نتحلى بهذه الروح ونحن ندوس تراب بلد الأرز؟

في أحد أيام الخميس هذه، تسلل خطاب من بين صفحات ألبوم الصور ليقع في يدي ميكا.

كانت الكلمات مرسومة بالحبر الأسود الداكن وكانت تتراقص على الورقة المصفرة الباهتة لتشكل خطوطاً فنية فريدة.

- ما هذا يا جدو؟ سأل ميكا.

- هذا شعر زجلي يا صغيري. الزجل هو نوع من أنواع الشعر الارتجالي العفوي الذي يرتكز على الأخذ والرد بين أطراف يجلسون حول طاولة واحدة في مناسبات عدّة كاجتماعات العائلية والأعراس. اسمعني جيداً اريد ان أقراه لك.

في إحدى زيارات ميكا لجده، أشار الجدّ الى صورة قلعة أثرية مبنيّة في وسط البحر وقال: هل تعلم يا ميكا، تاريخ لبنان يعود الى 700 سنة قبل الميلاد، وطننا هو مهد الفينيقيين، الشعب الذي سكن وبنى المدن الساحلية والقلاع واشتهر بالتجارة.

أما هذه القلعة فهي قلعة صيدا التي بناها الصليبيون في 1227 بعد الميلاد. صيدا هي ثالث مدينة في البلد وهي معروفة بسوقها القديم حيث ولدت وانتشرت صناعة الصابون منذ 300 عاما.

في بعض اللقاءات الأخرى في أيام الخميس من كل أسبوع، كان الجد يتحدث عن بيروت الحبيبة، وكان وجهه يتألق وتمحى فجأة تجاعيد وجهه وكأنه عاد الى شبابه وصباه، فتبدو السعادة على محياه وكأن فرحاً قديماً استوطن وجهه.

ان بيروت ليست مدينة عادية يا ميكا. بيروت هي ملكة المدن! كورنيشها تاج متلألئ على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

لها ألف وجه ووجه. فالحمرا تضج بالمطاعم والمقاهي وصولا الى الأشرفية المزينة بشوارعها الفرحة والمظللة بالأشجار والنباتات التي تغطي واجهات البيوت وتعطيها جمالاً أخاذاً.

في بيروت نجد مكان النجمة، مبنى البرلمان والسراي القديم. بيروت تعدّ العاصمة الحضارية والاقتصادية للبنان. ولطالما تغزّل بها الشعراء وغنى لها المطربون.

وفجأة كل هذا تغيّر عندما ضربتها الحرب الأهلية وتغير فيها كل شيء.

- لماذا وقعت الحرب في لبنان يا جدو؟ ولماذا رحلتم جميعاً من هناك؟

- ربما يا حبيبي اننا لا نستحق هذا البلد الصغير الجميل المبارك من الرب، البلد الشامخ بأرزه والمطل على البحر. انظر ماذا صنعنا ببلد الأرز يا جدو

أحرقت أشجار الزيتون، والاخوة تحولوا الى أعداء، ولبست الأم بيروت ثوب الحداد الأسود.

لا أريد أن أحزنك يا جدو. فلنغير الموضوع.

هذا المساء أود أن أحملك الى بلدة الامراء الشهابيين والى بلد الأمير فخر الدين الى دير القمر، مسقط رأس التيتا.

هذه الصورة أخذت في مناسبة عمادة عمتك. سنفتح باباً قديماً يزينه هلال وصليب. انه باب كنيسة سيدة التلّ.

يفتح ميكا عيناه بتعجب محاولاً التعرّف على وجه جدّه الشاب في صور باهتة صفراء يحييها صوت رجل عجوز. ها هو الجد في شبابه يقف أمام قصر عظيم. ينظر ميكا الى جده وفي عينيه ألف سؤال وسؤال.

يستجيب الجد لنداء حفيده ويقول: بيت الدين هو اسم البلدة والقصر الشهير. تخيل يا ميكا ان هذا القصر بناه أمير لبناني هو الأمير بشير الشهابي الثاني في القرن التاسع عشر بعد الميلاد. وهو جوهرة من جواهر الفن المعماري الشرقي تزينه الفسيفساء البيزنطية.

ينظر الجد الى ميكا ويغمزه مداعباً: هناك أشياء كثيرة تفتخر من خلالها بدمك اللبناني الأصل أيها الكندي الصغير.

يجيب ميكا على دعابة جده بسؤال: هل من الطبيعي أن أنتمي الى بلدين معاً بنفس الوقت يا جدو؟

- يا صغيري، يا ميكا البلد الأول هو بيت القلب والبلد الثاني هو مركز العقل. الأول يحتضن الماضي والثاني يتهادى مع المستقبل. أنا لم أختر البلدين او الوطنين. إنما فرض هذا الواقع المزدوج فرضاً عليَّ.

هذا هو مصير المهاجر وقدره يا ميكا. والبعض يرى في هذا ضعفاً وأنا اخترت ان أصنع من ضعفي درعاً اواجه به واقعي.

يمسك الجد ذراع حفيده ويتلمس عروقه البارزة ويكمل: يجري في عروقك التراث اللبناني والحضارة اللبنانية، والقيم الكندية تقولب سلوكك بأكمله.

لك خصائص الشرق وأنت متوجه نحو الغرب. أليس هذا أكبر تحدّ يواجهه إنسان؟ ان يحمل ماضيه في قلبه ويمضي لغزو المستقبل في بلده الثاني؟

حدثني عن لبنان بعد يا جدو.

هذا الخميس سوف أحملك الى الجنوب يا ميكا.

وسوف آخذك الى جزين لتتأمل هذه البلدة المنتصبة على ارتفاع 950 متر فوق مستوى البحر والمشهورة بشلالها المعروف وأدوات مائدتها المصنوعة باليد بحرفية وفن فريدين وعلى حد السكين الجزيني نرى طائر محفور هو طائر الفينيق.

رائعة هي جزين بطبيعتها وبصناعاتها الحرفية.

في جزين اختبأ الأمير فخر الدين في 1633 عندما فرّ من الجيش العثماني الذي كان يلاحقه ولجأ الى مغارة محفورة في الصخر.

في أحد أيام الخميس بقي ميكا صامتاً لا يتكلم، أغلق ألبومات الصور ببعض من العصبية وقال: لم أعد أريدك أن تحدثني عن لبنان يا جدو. أنا ولدت في كندا ولكن آن الأوان أن أكتشف وطن أهلي. تاريخي، وجذوري وحتى الأسرار المخبأة في البيوت المهجورة في القرى البعيدة. أريد ان أذهب الى بلدي. خذني الى لبنان.

أعجب الجد بردة فعل حفيده. وداعب وجه حفيده بيديه المرتجفتين وكرر نفس العبارة التي يرددها دائماً: سوف نرى هذا الصيف .. سوف نرى.

ولكن السنوات مرّت بسرعة، وتعاقبت المواسم وكبر ميكا والجد أعاد البومات صوره الى مكانها بين الذكريات.

وبعد مضي سنوات عدة، توقفت سيارة أمام منزل قديم مبني من الحجارة الصخرية، سقفه بال وشبابيكه باهتة مترهلة وترجّل منها رجل يحمل بين ذراعيه طفل صغير.

وبعد لحظات من التردد، تقدّم الرجل ووضع مفتاحه في قفل بوابة المنزل الذي أكله الصدأ وعلى وجهه تبدو إمارات الحبور والترقّب، وبين ذراعيه لا زال الولد الصغير مستقراً.

البيت مهجور والحديقة مهملة ولكن أشجار الحامض والتفاح وجوز الهند لا زالت شامخة قبالة الوادي الأخضر.

لاحق الرجل ضوء النهار وخرج الى الشرفة. ووجد في أحد زواياها العريشة التي صمدت رغم مرور الزمن. تعرّف عليها ميكا مباشرة من أحاديث جده عنها، فما زال صوت جده يرن في أذنيه ولم يستطع منع دمعة جرت على خديه تلتها دمعة أخرى.

وشوش ميكا طفله الصغير: طفولتي كانت محاطة بقصص جدي. كل خميس كان يروي لي قصة جديدة عن لبنان وعن العائلة وعن التقاليد. كان على حق حين قال ان لبنان جنة صغيرة على الأرض. انا هنا اليوم أجدني أحب هذا البلد، هذا الحب الذي غرسه في نفسي جدي وسقاه سنة بعد سنة. حافظ جدي على لبنان من خلال صورة المصفرة القديمة لكنها غنية بالتقاليد والقيم والعاطفة.

تابع ميكا كلامه وطفله الصغير يزقزق فرحاً.

انا هنا اليوم في بيتنا في عاليه. حان الوقت لإعادة إحياء الجذور النائمة. أنا هنا أخيراً عدت الى أحضان لبنان وسأجعل هذا البيت بيتي وغداً يصبح بيتك يا بني. سأشيّد هذا البيت ثانية ليعود كما في الماضي. فيه سيتصالح ماضيّ مع حاضري ليشكلان هوية جديدة حتى ولو مزدوجة لبنانية – كندية.

هوية شكّلها بلدان، وثقافتان، ومجموعة تقاليد.

وأضاف ميكا: ربما جئنا لنعاود السفر والترحال ثانية ولكننا في النهاية عرفنا مذاق لبنان العذب. يجب ان نستمر في عيش هذا البلد من خلال صور الألبومات والأغاني والأشعار والرسم وكافة الأشكال الفنية. يجب أن تبقى ذكرى هذا البلد خالدة في قلوبنا ويجب ألا ننسى.

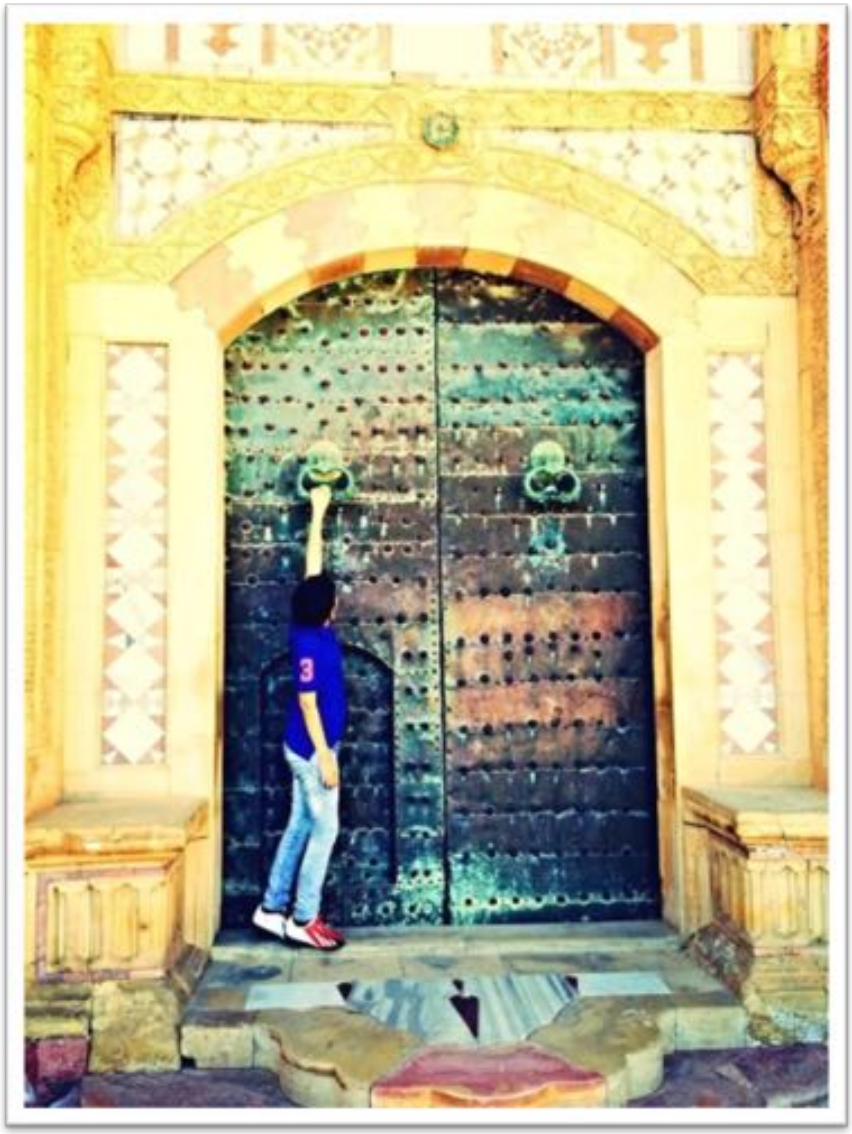

لم يفت الأوان بعد كي ندق على باب الماضي وندفعه وندخل محوّلين هذا الماضي الى حاضر وراسمين المستقبل بأبهى الألوان.

ابداً لم يفت الأوان بعد!

www.fridaanbar.com